القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

عمر وسعد بن أبي وقاص

عبد الحميد جودة السحار

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

(قرآن كريم)

١

هَزَمَ الفُرسُ المسلمينَ فى موقِعة الجسر ، وفرَّ المسلمون إلى المدينة ، فعزَّ ذلك على عُمرَ أميرِ المؤمنين ، فنادَى فى المدينة : «الصلاةَ جامعة» ، وكان هذا هو النّداءُ كلّما أراد الخليفةُ أن يجمعَ المسلمينَ لأمرٍ عظيم ، فاجتمع الناسُ إليه ، فأخبرهم أنه عازمٌ على أن يخرجَ بنفسه لقتال الفُرس ، فقال النّاس :

ـ سِرْ وسِر بنا معك .

فقال لهم عُمر :

ـ استعِدُّوا وأعِدُّوا ، فإنى سائرٌ إلى أن يجيءَ رأىٌ هو أمثلُ (أفضلُ) من ذلك .

وأرسل عمرُ إلى أهلِ الرَّأىِ والشورَى ، ودخل عليه علىُّ ابنُ أبى طالب أوَّلَ من دخل ، فقال له عمر :

ـ ما ترى يا أبا الحسن ، أسيرُ أم أبعث ؟

ـ سِرْ بنفسِك ، فإنه أهْيَبُ للعدوّ ، وأرْهَبُ له . ودخل عليه عبدُ الرحمنِ بنُ عوْف ، فقال له عُمر :

ـ أسيرُ أم أبْعث ؟

ـ فُديتَ بأبى وأُمى ، أَقِمْ وأبعثْ ، فإنّه إن انهزم جيشُك ، فليس ذلك كهزيمتِك ، وإنـك إن تُهـزَم أو تُقتَـل ، يكفُـر المسلمون ، ولا يَشهدُوا أن لا إله إلا اللهُ أبدا .

وخرج عبدُ الرحمن ، ودخـل عثمـانُ بنُ عفّـان ، فقـال لـه عمر :

ـ يا أبا عبدِ اللهِ ، أشِرْ عليَّ ، أَسيرُ أم أُقيم ؟

ـ أَقِمْ يا أميرَ المؤمنين وابعث الجيوش ، فإنّى لا آمنُ إنْ أتى عليك آت ، أن ترجعَ العربُ عن الإسلام ، ولكن ابعثِ الجيوش ، ودارِكْها بعضَها على بعض ، وابعث رجلا له تجربةٌ بالحربِ ومَضربِها .

ـ ومن هو ؟

ـ عليُّ بن أبى طالب .

ـ فالقَهُ وكلّمه ، وذاكِرْه ذلك ، وانْظُرْ أتراهُ مسرعا إليه أَمْ لا ؟

وخرج عثمانُ وقابل عليًّا . فذاكره ذلك ، ولكنَّ عليًّا أَبى ذلك وكرِهه ، فعاد عثمانُ وأبلغ عمرَ رفضَ علـىّ ، وَاجتمـعَ

أهل الرأى ثانية ، يبحثون فيمن يُولُّونَه حرب الفُرس ، فقال بعضُ الحاضرين :

ـ قد وجدتُه .

ـ فمن ؟

ـ الأسدُ عادِيا .

ـ من هو ؟

ـ سعدُ بن أبى وقّاص .

فقال عمر :

ـ أعلم أنَّ سعدا رجلٌ شجاع ، ولكنّى أخشى أن لا يكونْ له معرفةٌ بتدبيرِ الحرب .

فقالَ عبدُ الرحمن بنُ عوف :

ـ هو على ما تصِفُ من الشّجاعة ، وقد صَحِبَ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وشهد بدْرا ، فاعهَد إليه عهدا ، وشاورْنا فيما أردتَ أن تُحدِث ، فإنه لنْ يخالِف أمرَك .

٢

أصبح سعدُ بنُ أبى وقّاص قائدَ الجيوش الذّاهبة لقتال الفرس ، فسار حتى نزل القادسيّة ، فأسرع أهلُ العراق إلى كِسْرَى يَزْدَجِرْد ، يستغيثونَه ويُخبرونه بنزول العرب ، وتفرُّق سَراياهم للغارة ، وطلبوا منه النجدةَ والعون ، فأرسل فى استدعاء رُسْتَمَ قائدِ جيوشِه ، وقال له :

ـ جاء العرب لمناجزتنا فى عُقْر دارنا ، وإنى رأيت ، وأَنْتَ قائدُ قُوّادِ الدّولة ، وصاحبُ الرّأى فيها ، أن أُوَجِّهك فى هذا الوجه ، فأنت رجلُ فارسَ اليوم ، وترى ما حلَّ بالفُرس ، مما لم يأتِهم مثلُه .

وأخذ رُسْتُمُ يستعدُّ لقتال المسلمين ، فجعل على مقدّمَتِه الجالينوسَ فى أربعين ألفا ، وعلى مَيْمَنَتِهِ الهُرْمُزان ، وعلى مَيْسرَته مَهران .

وتقدّمتْ جيوش رُستَمَ حتى نزلت بساط ، بين المدائن والقادسيَّة ، بمائة ألفِ مقاتل أو يزيدون ، وراح سعدٌ ينتخب من يرسلهم إلى يَزْدَجِرْد ، ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، قبل

أن يأمُرَ بالحرب ، فانتخب نفرا من قادةِ المسلمين ، وأرسلهم إلى رُسْتَم .

دخل الوفدُ الإسلاميُّ على رستم ، وطلبوا منه مقابلة يَزْدَجِرْد ، لعرض شروطِهم عليه قبل القتال ، ولما كان رُسْتم لا يرغب في القتال ؛ فقد أرسلهم إلى المدائن ، عاصمةِ فارس ، فساروا في طرقاتها مرفوعي الرُّءوس ، وخَرج النَّاسُ ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطِهم بأيديهم ، والنِّعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفةِ تَخْبط على الأرضِ بأرجلِها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غايةَ العجب ، وَيتساءلون : كيف تَمَكَّنَ مثلُ هؤلاءِ من قهرِ جيوشهم مع كثيرِ عَدَدِها وَعُدَدِها !!

جلسَ الملكُ يَزْدَجِرْدُ على عرشِه ، يحوطُه خدمُه وحشمه وأعيانُ القوم ، وأذِنَ للوفدِ بالمثول ، فدخلوا جميعا شامخي الأنوف ، وجيء بالتَّرجمان ، فقال له يَزْدَجِرْد :

- سَلْهم ما جاء بهم ؟ وما دعاهم إلى غزونا ، وَالتَّوَغُّل ببلادنا .

ــ نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دينٌ حسَّن الحسَنَ وقبَّح القبيح كلَّه ، فإن أبيتُم ، فأمرٌ من الشرِّ هو أهوَنُ من آخرَ شرٍّ منه : الجزاء ، فإن أبيتُم فالمناجَزة (القتال) ، فإن أجبْتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتابَ الله ، وأقمناكُم عليه ، على أن تحكُموا بأحكامِه ، ونرجعَ عنكم ، وشأنكم وبلادَكم ، وإن اتَّقيتُمونا بالجزاء قَبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

وثار يَزْدَجِرْد ، فما كان يُصَدِّق أنَّ العرب ، الذين كانوا أشقَى أُمَّةٍ فى الأرض ، قبل أن يُرسِلَ الله إليهم مُحمَّدَ بنَ عبد الله ليرفعَهم من الذُّلِّ إلى الكرامةِ والعزة ، يَعرضون عليه أن يترُكَ دينَه ، ليدخلَ فى دينٍ جديد ، أو يدفعَ لهم الجزية ، أو يستعِدَّ للحرب والقتال ، فقال فى غضب :

ــ لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتَلُ لقتلتُكم ، لا شيءَ لكم عندى .

٣

خرج رُسْتم من مُعسكره ، وسار حتى بلغ قنطرةَ القادِسيَّة ، فتأمَّل جيشَ المسلمين ، فرأى عسكراً كثيرا ، فأحسَّ ضيقا ، وأقبل اللَّيل ، فدخل سريرَه لينام ، ولكنَّ النوْم جافاه ، وأخذ يتقلَّب فى فِراشِهِ ضَجِرا ، وهو يفكّر فى العرب الَّذين جاءوا لقتالِهم . وأخيرا نَام ، فرأى فيما يرى النائمُ مَلَكاً وأعرابيًّا يدخلانِ عسكرَ الفُرس ، وعلِم أنَّ الأعرابيَّ هو عمرُ خليفةُ المسلمين ، ثم رأى المَلَكَ يتّجهُ إلى سلاحِ فارس فيختِمه ثم يجمَعه ، ويدفعُه إلى عمر ، وقام من نومِه مرعوبا ، ولما هدأ نام ثانية ، فرأى فى الحُلم أنَّ أعرابيًّا يدخل عليه ويذبحُه ، فهبَّ من نومه مفزوعا .

وجاء يومُ القتال ، فأرسل رستمُ رسولَه إلى سعدِ ابن أبى وَقَّاص ، يقول له :

ـ إما أن تعبُرَ إلينا أو تترُكنا نعبُر .

فقال له سعد :

واستمرَّ مَن فى المَيدان يصفُ ما يحدُث أمامه ، فتبلغ الأنباءُ الملِك يَزْدَجِرْدَ وهو فى قصره .

وهتف سعد :

ـ الله أكبر .

وكبَّر المسلمون خلفـه ، وتزاحفـوا ليقـاتِلوا فـى سبيلِ الله صفًّا ؛ كأنهم بنيانٌ مَرْصوص .

راح المسلمون يطعَنونَ الفِيَلَة ، ولكنَّ الفِيَلَـة كـانت تُشيع الفوضَى بينهم ، وصاح صائح :

ـ يا معشرَ الرُّماة . سَدِّدوا سهامكم إلى رُكبانِ الفِيَلة .

وأخذت سهامُ المسلمينَ تتطايرُ فى الجوِّ ، وتثبتُ فى صدورِ الرِّجال الرّاكبينَ الفِيَلة ، وتسلَّل بعضُ العـرب حتى أصبحـوا خلف الفِيَلة ، فـأخذوا بأذنابهـا ، وقطَّعوا الحبالَ التى تُثبِّتُ التّوابيتَ على ظهورها ، فسقطَ مـن فى التوابيـت ، وراحتِ الفِيَلَةُ تدوس مَنْ وقع ، وشاع الاضطرابُ فى نفوسِ الفُرس ، واشتدَّ القِتال ، حتى إذا ما غربتِ الشمس ، هدأتِ المعرَكة ، ثم توقَّف الفريقانِ عن القتال ، وراحا يستعدّان لاستئنافِها مـع الصباح .

وأشرقتِ الشمس ، ووصلَ مددُ المسلمين ، وهَجَموا على الفِيَلة يُسدِّدونَ رماحَهم إلى عُيونِها ، فكانت الفِيَلةُ تضربُ على غيرِ هُدى ، فإذا اتجهتْ إلى صفوفِ المسلمين نَخَسُوها ، فتعودُ إلى صفوف الفُرس فيَنْخُسونَها ، واستمرتْ كذلكَ بين العسكرين، وأخيرا يممتْ صَوْبَ النَّهرِ ونَزَلَتْ فيه ، وخلا الميدانُ من الفِيَلة ، فَحَمِد المسلمونَ الله ، وراحوا يقاتلونَ قِتالَ الأبطالِ الصّناديد . واستمرَّتْ المعركَةُ طوالَ اللَّيل ، وبدأ الضعف يدبُّ فى جيش رُسْتَم ، فراح المسلمونَ يقتُلون الفُرس . ورأى رُستَم نفسَه أمام بطلٍ من أبطالِ المسلمين ، والموتُ يُطلُّ من سيفِه ، فجرى رُستَم حتى بلغَ النَّهْر ، فألقى نَفْسَه فيه ، وأخذ يسبَح ، فاقتحم المسلمُ النهر ، وأمسكَ برُستَم وخرج به إلى الشاطىء ، ثم تناول سيفا وضربَه به ، ثم صاح :

- إلىّ ... إلىّ ! قتلتُ رُستَمَ وربِّ الكعبة ... قتلتُ رستم .

رأى الفُرسُ ما حلَّ برُسْتَمَ ، فدبَّ الذُّعرُ بينهم ، وانهزموا ، وراحوا يعبُرونَ النَّهْر وسيوفُ المسلمين تعمَل فى

فنزل الراكبُ عن ناقتِه ، وتقدَّم من عمر ، وقال :

ـ فهلاّ أخبرتَنى رحِمك الله أنك أميرُ المؤمنين ؟

فقال له عمر :

ـ لا عليك يا أخى .

ـ أنا سعدُ بن عُمَيلةَ الفَزارى ، قد بعثَنى سعدٌ إليك بكتاب .

فتناول عمرُ الكِتاب ، وذهب إلى المسجد ، وقام فى النّاس ، فقرأ عليهم .

« أما بْعد ، فإنَّ الله نصرَنا على أهلِ فارس . »

فسَرَتْ فى المدينةِ مَوْجةُ غِبطةٍ وسرور .